7

النقيب

بعد وقت قصير من سقوط بغداد، بثّت قناة الـCNN فيلماً عن رجال من المارينز، واجههم جمع من العراقيين الغاضبين، وكانوا يصيحون عليهم: «إننا هنا من أجل حريّتكم اللعينة! والآن تراجعوا إلى الخلف!».

عندما تحوّلت حرب التحرير إلى احتلال، رأى عشرات الآلاف من الجنود (الذين ظنّوا أنهم سيعودون إلى الوطن بحلول شهر حزيران) أن مناوباتهم قد تأجّلت، وتأجّلت، ثم تأجّلت. وسرعان ما أصبحوا أكثر وجوه الاحتلال وضوحاً. وجلس المهندسون الحربيون المدرّبون على تفجير حقول الألغام في اجتماعات وزارة المياه في بغداد، وأمضت القوات المحمولة جوّاً، التي تستخدم للدخول في مهمات والخروج منها في أثناء أيام، شهوراً في إنشاء قسم شرطة كركوك، وقام جنود فرقة المشاة الثالثة التي قادت الغزو بتوزيع الكتب الدراسية في مدرسة بغداد للبنات. كانت مهام حفظ السلام في البلقان قد أعطت بعضاً منهم قدراً من الاستعداد، لكن لم يكن هناك أي تدريب على المشروع الهائل الملقى على أكتاف الجنود في العراق. كان أمام سلطة الائتلاف المؤقتة شهور قبل إنشاء مكاتب إقليمية. ظل راي سلفادور جينينغز، مستشار USAID الذي كتب أحد التنبؤات عن العراق بعد الحرب، وانتهت على مكتب بريمر، يتردد إلى الضباط الشبان الذين يحاولون إقامة حكومة في المدن متوسطة الحجم، الذين قالوا له: «أنا أقوم بأفضل ما أستطيع، لكنني لا أعرف كيف أقوم بذلك، ليس لدي دليل، هل لديك دليل؟ سأكون ممتناً جدًّا لأي شيء تستطيع أن تقدّمه لي». وقد طلب أحد قادة الشؤون المدنية من ألبرت سيفالوس، زميل جينينغز، تدريبه على قواعد روبرت للنظام 101. وتحقق كابوس دونالد رامسفيلد عن جيش من بناة الأمة في جميع أنحاء العراق.

وقد أراني أحد قادة فرقة رماة، اسمه النقيب جون بريور، سجلّ الحرب الخاص به لربيع 2003. فبعد أن حاربت فرقة شارلي للكتيبة الثانية، وفوج المشاة السادس، والفرقة المدرّعة

الأولى لتشقّ طريقها من الكويت إلى مطار بغداد، بدأت وحدة النقيب بريور رحلة طويلة حول وسط بغداد استمرت قرابة ثلاثة أشهر، ويروي سجلّ بريور قصة جنود أدركوا أن ما سمّاه الرئيس بوش، في 1 أيار، نهاية «العمليات القتالية الرئيسة» لم تكن إلا البداية.

كان بريور شاباً في التاسعة والعشرين من عمره من ولاية إنديانا، طوله ستة أقدام، وكان قاسياً (فقد خمسة وعشرين باوناً من وزنه في الأشهر الخمسة الأولى في العراق). وكان قد التحق بهيئة تدريب ضباط الاحتياط في كلية صغيرة للهندسة في إنديانا، ثم قرّر أن يتخذ العمل العسكري مهنة له. كان له وجه طفولي وفكاهة جامدة، لا تناسب قسوته، قال بريور: «بعض الناس ولدوا للقيام بشيء ما»، حسب روايته، كان يحب حياة الجيش، وكان يحب تلقي الأوامر وإعطائها، «الأسباب السخيفة التي يقول الناس: إنها في الجيش، ويقولون: لا، لا يمكن أن تكون كذلك، تلك هي الأسباب ذاتها التي جعلتني أنضم للجيش. وحين أخفقت الجهود الديبلوماسية، ولم يستطع ماكدونالدز أن ينشئ وكالات كافية ليكسب بغداد، في هذا الوقت دخل الجيش».

في المهمة الأولى لفرقة تشارلي، بعد سقوط بغداد، أُرسل بريور إلى الرمادي غرب المدينة، لإخلاء جثة صحافية أرجنتينية، اسمها فيرونيكا كابريرا، كانت قد قتلت في حادث سير على الطريق السريع. كان بريور وجنوده أول قوات تقليدية تدخل الرمادي، التي كانت -في أواخر نيسان- قد أصبحت معقلاً للمقاومة البعثية. طلبت منهم القوات الخاصة، ووكالة الاستخبارات المركزية أن يبقوا عدة أيام للمساعدة في حراسة المدينة، وبينما كانت قافلة بريور المكوّنة من عربات البرادلي والهامفي، وناقلات الجنود المسلّحين تسير على الطريق الرئيس من الشرق إلى الغرب، بدأ أحد المساجد يردّد خطابات معادية للأمريكيين، وسرعان ما اجتمع حشد من ثلاث مئة أو أربع مئة عراقي. وجد بريور وجنوده أنفسهم وسط أعمال شغب، وقد انهالت الشتائم والفواكه والأحذية والحجارة، وأخيراً قطع الإسمنت عليهم وعلى مركباتهم. لم يطلق الأمريكيون الرصاص، ولم يُصب أحد بإصابة خطيرة؛ وقد أثنى بريور في سجلّه على جنوده لتحلّيهم بضبط النفس. في تلك الليلة أرسل بريور دورية أخرى على الطريق نفسه «لنري أهل الرمادي أننا أقوى منهم، وأكثر مرونة

وأننا جئنا إلى هنا لنبقى». تعرّضت هذه الدورية لإطلاق نار من أسلحة خفيفة من الحارات المظلمة، لكن القناصة اختفوا قبل أن يستطيع الأمريكيون إيجادهم.

وفي الأيام اللاحقة في الرمادي وبعدها في الفلوجة القريبة منها، سجّل بريور سلسلة من الهجمات على المنازل، ومحلات الأسلحة. «يكتسب جنودنا خبرة كافية لمعرفة الفرق بين أن نكون لطفاء مع الناس، ومتى يحين الوقت كي لا نكون لطفاء، ونرمي الناس على الأرض». تقوم شركة تشارلي بالانتقال الصعب من العمليات القتالية إلى عمليات الاستقرار -من المرحلة 3 إلى المرحلة 4- وبريور سعيد بدهاء جنوده. ثم دخل شيء جديد وغريب في حساباته: ألا وهو العراقيون.

في الرمادي، قام رجل يتحدث الإنكليزية بشكل غير جيد من بين عراقيين آخرين بسحب بريور جانباً بشكل مفاجئ، ووضع يده حول أذن القائد، وهمس بإنكليزية لا عيب فيها: «أنا أمريكي، خذني معك». وحين حاول بريور أن يعرف المزيد عاد الرجل يزلّ في الإنكليزية غير الجيدة ثم سكت. وفي يوم آخر، اقترب رجل، بصحبة زوجه وولده من جندي عند بوابة الجامعة. كان يتحدث الإنكليزية بشكل ممتاز وبلهجة بريطانية، وأخبر الجندي بقصته: ذكر أنه درس في إنكلترة، ثم عاد إلى العراق عام 1987، ولم يعد يستطيع الخروج منه منذ ذلك الوقت. حذّر الرجل الجندي من الوثوق بالعراقيين، وقال: إن الأمور ليست كما تبدو. فجأة توقفت شاحنة بيضاء وخرج منها سبعة رجال متأنقين. فاختفى الرجل الذي كان عند البوابة مع زوجه وابنه قبل أن يتمكن العراقيون من الكلام معه. فتبعه بريور والرقيب أول، مارك لاهان، إلى البيت ليروا إن كان هو وعائلته في خطر. والآن قال الرجل بلغة إنكليزية مكسّرة: إن كل شيء يسير على ما يرام.

وفي حادثة غامضة أخرى، اقترب رجل من لاهان، وهو يقوم بدورية ليلية، وسأل بصراحة: «كيف تسير الأمور في بغداد؟ هل حدثت أي تفجيرات انتحارية؟ هل قتل أي من الأمريكيين؟» وحين أجاب لاهان أنه لم يحدث شيء من هذا النوع، بدا الرجل مدهوشاً. ويعلّق بريور في سجلّه قائلاً: «من الممتع بعد أن انتهى معظم القتال في هذه البلاد أن نرى أن حملة التضليل التي يقوم بها المتشددون العراقيون مازالت مؤثرة، وسيستغرق الأمر مدة

طويلة ليصبح هؤلاء الناس قادرين على الثقة ببعضهم من جديد، وعلى فهم الكيفية التي يفترض أن تعمل بها الحكومة والقانون والنظام». في الحقيقة لم يكن التضليل من المقاومين من النظام السابق. فحرب العصابات توشك أن تبدأ.

كتب بريور في 26 نيسان، بعد خمسة أيام في الرمادي: «بدا الوضع كله غريباً جدًّا، فمن الواضح الآن أنهم ليسوا سعداء بوجودنا هنا كما يقولون. أول مرة منذ مدة شعرت بالتوتر الشديد؛ لكوني على هذا القرب الشديد؛ من المواطنين العراقيين. أنا لا أثق بهم». وفي عنوان آخر من الفلوجة، كتب بريور: «العراقيون شعب ممتع، لا يملك أي منهم أسلحة، ولا يعرف أي منهم مكان الأسلحة، كل السيئين غادروا الفلوجة، وهم لا يريدون إلا أن تعود الحياة إلى طبيعتها من جديد. لسوء الحظ، فقد تم ضرب مجمّعنا بقذائف RPG اليوم؛ لذا لا أميل إلى تصديقهم».

الرمادي والفلوجة هما المدينتان الرئيستان في محافظة الأنبار، وهي منطقة صحراوية واسعة للعرب السنة المحافظين، ومكان لعدد كبير من المسلحين العراقيين وضباط الاستخبارات، كانت محافظة الأنبار آخر المحافظات سقوطاً على يد قوات التحالف، وتم ذلك دون إطلاق رصاصة واحدة. حتى وصول الجنود الأمريكيين، كان القادة المحليون قد سيطروا على المدن ومنعوا أعمال النهب فيها. وفي الأنبار بدأ التمرّد، وقد قال لي شيوخ العشائر لاحقاً: إن كل ذلك لم يكن ضرورياً. فقد كانت المحافظة مستعدة للتعاون مع التحالف. ولو بقي الأمريكيون خارج المدن، لما تجمّعت الحشود للاحتجاج، ولم يكن الجنود ليطلقوا النار على الجموع، كما فعلوا في الفلوجة في 28 و30 نيسان، حيث قتلوا ثمانية عشر مدنياً، ولما ردّ العراقيون بالمثل بالقنابل والأسلحة الآلية، ولما بدأت الحرب الثانية.

هذه الرواية فيها شيء من الصحة؛ فالوحدتان الأمريكيتان اللتان سيطرتا على الرمادي والفلوجة كتيبة سلاح الفرسان الثالثة والفرقة الثانية والثمانون المحمولة جواً على التوالي كانتا غير مناسبتين للعمليات المدنية، ولم تكونا تريدان الوجود هناك، وكانت ردود أفعالهما على الاستفزازات مبالغاً فيها، كتب بريور: «لم تعجبني عمليات كتيبة سلاح الفرسان الثالثة في الرمادي، لم يبد أن لديهم فكرة عما كان يحدث، ولا شعور بخطورة الوضع، ولم يكن أحد يعرف ما كان عليه الوضع في القطاع، ولم تستطع أي من القيادات تقديم أي إرشادات أو

إجابات». ولما كانت الكتيبة قد وصلت إلى العراق متأخرة جدًّا، وسط الرمال والحرّ والسكان المحليين غير الودودين، فقد بدت غير قادرة أو غير راغبة في الانتقال إلى المرحلة 4: «لم يظهر أنهم مستعدّون أو أنهم فهموا مهمة العمليات المدنية الموكلة إليهم، وقد أوحى إلي سلوكهم تجاه قواعد الاشتباك أنهم لم يقوموا بالتغيير من عمليات القتال إلى عمليات الاستقرار». كذلك لم يكن ضرب منزل أحد الزعماء القبليين الذي كان يتعاون مع وكالة الاستخبارات المركزية سنوات، بسلاح الجو الأمريكي وقتله هو وسبعة عشر فرداً من أفراد أسرته، أمراً مساعداً. ولجهل الفرقة الثانية والثمانين في الفلوجة بالثقافة العربية وافتقادها للخبرة المدنية (لم تأتِ سلطة الائتلاف المؤقتة إلى الأنبار حتى شهر آب)، فقد رفضت التعويض لأسر القتلى في حوادث نيسان. وحين استولى رجال البحرية على الفلوجة في أوائل عام 2004 وقدّموا الديّة متأخرين، رفضتها معظم العائلات.

لكن سجلّ بريور يظهر أن الأنبار كانت سبباً للفشل الأمريكي. فعملاء وكالة الاستخبارات المركزية CIA، والقوات الخاصة التي دخلت الفلوجة أولاً لم تجد أحداً يعمل معها، كتب بريور: «كان رجال الدين والشيوخ والقادة الحكوميون في المنطقة يشتكون مدة من الوقت أنهم بحاجة للمساعدة في إزالة العناصر السيئة من مدينتهم، كان هذا هو السبب الرئيس في أنهم لم يقدموا مزيداً من المساعدة، وفي أنهم كانوا يتلكؤون في القيام بأي شيء». لكن حين أرسل العملاء الأمريكيون وحدة مشاة صغيرة لتقديم الدعم، قوبلت بأعمال شغب، مما أوجب استدعاء الوحدة الثانية والثمانين المحمولة جواً للسيطرة على الوضع، وقد قال بعض المحللين العسكريين الأمريكيين لاحقاً: إن المشكلة في الأنبار لم تكن وجود قوة كبيرة، بل قوة قليلة جدًّا ومتأخرة جدًّا. كانت الدراسة يجب أن تكون أدقّ مما كان باستطاعة أفضل الوحدات استعداداً، ثم أدى كل خطأ دوراً في زيادة سوء النية وتسريع التمرّد.

قام جنود بريور بقيادة مركبة، وضرب بوابة، وتحطيم جدار حديقة، في طريقهم لدهم المنزل الخاطئ، وحين ضربوا المنزل الصحيح الذي كان بجوار المنزل الأول لم يمسكوا إلا اثنين من خمسة إخوة كانوا يبحثون عنهم. سجّل بريور أن الهجوم كان ناجحاً، لكن قبل أيام، كان قد علّق بأن الأساتذة في جامعة الرمادي الكئيبة التي تعصف فيها الرمال، كانوا يحمون الممتلكات بأسلحتهم الخاصة، وألقوا اللوم على الأمريكيين؛ لخرقهم الأسلاك الشائكة،

مما سمح دون قصد للناهبين بالدخول. لم يكن أحد يستخدم عبارة «القلوب والعقول» بعد، لكن بريور على خلاف قادته في قطر وواشنطن، كان يعلم أنها فرصة ضائعة: «يبدو الناس في الجامعة محايدين تجاه القضية الأمريكية، وكانوا أنموذجاً للناس في الجامعة، فهم متحررون، وغير مقدّرين من الجيش، ويريدون اللعب على كلا جانبي المعادلة. وكان انطباعي عنهم أنهم لا يهتمون إن وجد الأمريكيون أو الفدائيون، وكان كل همهم ألا تتعرض الجامعة لمزيد من النهب. بدا من الممكن شراء ولائهم مقابل حماية جامعتهم».

كان بريور من بين أول الجنود الذين صدمتهم الطبيعة الخفيّة للأشياء في عراق ليس في حالة حرب ولا في حالة سلم، لم يكن شيء كما كان يبدو، كانت قوة السلاح والنوايا الطيبة أقل أهمية من تعلّم قراءة الإشارات، وكان بريور يرى نفسه محرّراً، لكنّ هناك أُناسٌ في الخارج يمكن كسب دعمهم أو خسارته، ولا شيء يأتي بسهولة، وكان لكل حكم يصدره أثر صغير في النتيجة. والعراقيون الذين لم يعودوا تلك الجموع المبتهجة التي رحّبت بالشركة في طريقها إلى بغداد سيؤدون دوراً كبيراً في حياة بريور الآن.

استمرت الهجمات في الرمادي والفلوجة قرابة الشهر، ثم تم استدعاء فرقة تشارلي للعودة إلى بغداد، وانتهى سجلّ قائدها بريور كما يلي: «أخمدنا المشكلات وغادرنا»، لكنه قال لي فيما بعد: «عادت المشكلات من جديد».

أمضت فرقة تشارلي الشهر الأول لها في بغداد في حديقة الحيوان (كان الجنود هناك سابقاً في منتصف نيسان، في مهمة لحراسة شاحنة محمّلة باللحوم المجمّدة كتب عليها: «هدية من الشعب الكويتي إلى الشعب العراقي»). أمضت الوحدة شهراً تجلب الأمن إلى المنطقة، وتنشئ مجلساً للحي. وبعد ذلك، في أواخر حزيران، نُقلت الفرقة من جديد، إلى أكاديمية عسكرية في جنوب بغداد (كانت الثكنات مزيّنة بورقة الكريبي منذ رمضان الفائت)، بجانب الأنقاض المقصوفة لمخيم عسكري كبير، وحقل جوي كان قد تحوّل إلى مأوى لخمسة آلاف شخص مشرّد، وبعض السارقين والمجرمين. لم تكن الخطوط الأصلية للواء مرسومة، بحيث تتوافق مع المناطق التنظيمية لبغداد، وفقدت وحدة بريور زخمها الحاسم، قال بريور: «كنا نخطط لهذه الحرب منذ 12 أيلول، وربما كان من المفيد لو قام

شـخص برسـم خريطة قبل الحرب، وحدّد فيها أين يذهب كل منا، بعد كل الأمور التي قمت بها، عليك أن تنتقل، أي في وقت غير مناسب، بعد أن أصبح لنا أصدقاء هناك».

وفقاً للجدول الزمني الأصـلي للواء، كان من المفروض إعادة بناء البنية التحتية لبغداد في شـهر آب، وأن تتم الانتخابات في أوائل أيلول، وأن يغادر الجنود المدينة في تشـرين الأول، لكن هذا التوقع السـريع سـرعان ما تمّ التخلي عنه، بالطبع، ولم يسـتطع بريور وجنوده أن يبـدؤوا بـأي عمل مهـم في موقعهم الدائم حتى أوائل تموز. وبسـبب التخطيط المشـوّش لم تبدأ أنشـطة فرقة تشـارلي بتقديم فوائد ملموسـة للعراقيين حتى شـهر آب، أي بعد أربعة أشـهر من وصـول الأمريكيين إلى بغداد. ولم يكن هناك وقت لإضاعته، طوال الصيف كان التيار الكهربائي يعمل بشـكل متقطّع، واسـتمرّ العنف من جميع الأنواع في التصاعد، وفقد الأمريكيون العراقيين الذين كان من الممكن أن يكسبوهم إلى صفّهم.

وفي صـباح أحـد الأيام في أوائل شـهر آب، كنت جالسـاً في مطعم معسـكر القاعدة مع بريور والرقيب أول لاهان ومترجمهما نعمان النعمة، وهو رجل أشـيب كان يعمل مهندساً في الخطوط الجوية العراقية سـابقاً. فتح بريور خريطة لنقاط الأمن في بغداد، وأراني الجزء الذي «تحت سـيطرته» من المدينة، فقد كان ذلك الجزء هو مسـتطيل الزعفرانية، وهو حي فقـير أكثر سـكانه من الشـيعة في جنوب بغداد. يعيش نحو 250 ألف شـخص في المنطقة. وبالإضـافة لمسـؤوليته عن الأمن، كان بريور يرأس مجلس الحي، ويشـرف على مشروعات صـغيرة لإعادة الإعمار، كترميم المدارس. وكذلك كان هناك مسؤول عن الصرف الصحي والنظافة في كل منطقة كتيبته التي تضم نصف مليون شخص.

قال بريور أكثر من مرة: «البنية التحتية هي الأساس الآن، فإذا حصل هؤلاء الناس على الكهرباء والماء والطعام وأساسات الحياة فسيقلّ احتمال قيامهم بالهجمات». وقد أدرك أن الصـرف الصـحي هو الخط الأمامي في بناء الأمة، وحين قابلته كان يحاول الحصول على مئتي ألف دولار؛ ليضعها في أيدي المتعهدين العراقيين بأسرع ما يمكن.

أصرّ المترجم على بريور: «هذه هي الإجابة، أرنا شيئاً، الناس جائعون، إنهم لا يصدّقون أنهم تخلّصوا من صدام، فإذا تخلصوا من صدام، فسيقولون: أعطني شيئاً آكله. لهذا يكره

الناس الأمريكيين. نحن لا نكرههم لأنهم أمريكيون، بل لأنهم القوة العظمى، لكن أين القوة العظمى؟ أرونا إياها».

نظرت إلى بريور: «إذاً هذا كله على عاتقك».

فقال: «نحن نعرف هذا طوال الوقت».

خرجنا إلى شوارع الزعفرانية في القافلة المعتادة التي تتألف من عربتي هامفي مع قناصة معززين بأسلحة Caliber - 50. وحين اختفت أذنا بريور وقصة شعره الصبيانية تحت خوذة الجيش الأمريكي، تحوّل وجهه فوراً إلى وجه جندي محنّك. كانت مهمّته في هذا الصباح زيارة تسع محطات ضخّ، توجّه مياه الصرف الصحي غير المعالجة إلى نهري دجلة وديالى. كان لفقر العراقيين، مقارنة مع فخامة قصور صدام ونُصبه أثر عميق في الجنود الذين جاؤوا من مدن صغيرة في إنديانا وأوكلاهوما، وفيما يخص الكثير منهم كانت الرغبة في المساعدة هي الشيء الوحيد الذي جعلهم يرضون بمهماتهم المطوّلة. وكانت الجولة في حي شيعي فقير، والاطلاع على الصرف الصحي فيه يظهر أن صدّاماً جعل من الأجزاء التي لا يفضلها في العراق بمستوى كينشاسا ومانيلا. كانت البرك الخضراء من النفايات غير المعالجة، التي يبلغ عمقها ثمانية عشر قدماً، تسدّ الطرقات بين المنازل، حيث كان الأطفال يلعبون. كما كانت الخنادق المفتوحة التي تمثل نظام الصرف الصحي في المنطقة فائضة.

علّق بريور «كم أنا أحمق، إذ لم أدرك أن الوحل المفتوح الذي يمرّ أمام الأطفال هو الطريقة التي يفترض أن يعمل بها النظام»، لم يكن لديه صلاحية فورية بتجديد كامل لنظام الصرف الصحي وقال: «سأقوم بدعم خط الوحل المفتوح لمياه الصرف الصحي لجعله يسيل». ارتفعت الحرارة، وأصبحت الشوارع خانقة، وتحرّك بريور بمشية عسكرية وخطوات جدية، وكان المهندسان من الكتيبة الأخرى يبذلان جهداً للّحاق به. كانت محطّتا الضخ المعطوبتان قد تمت صيانتهما وحراستهما من قبل أسرة عراقية تعيش في كوخ في الجوار وتدير مزرعة خضراوات، وتملك سلاحاً من طراز AK 47. لم يدرس بريور الهندسة المدنية في حياته -وذكّرني أن وحدته لا تضم أحداً ممن له خبرة في تخطيط المدن- لكن كان

يبدو أنه قد تمرّس في أعمال نظام الصرف الصحي في الزعفرانية. وقد قال لي لاهان الذي سبق له العمل في حرب الخليج: «يقول الناس: إن الجيش سبق له القيام بهذا، عام 1945 مع اليابان وألمانية. لسوء الحظ، لم يعد أي من هؤلاء الناس في الجيش؛ لذا علينا أن نخمّن ذلك بأنفسنا».

وبوجود بريور لم تكن هناك محاولات جدّية لكسب القلوب والعقول في جلسات الشاي. كان عملياً وسريعاً جدًّا، وبدا أن العراقيين الذين كانوا يعملون معه، والذين كان لديهم كلامٌ أكثر من الوقت الذي يعطيهم إياه بريور للكلام، كانوا يحترمونه. «سأحضر لك المال»، قال لرجل عجوز أشيب كان يشرح له بإسهاب أن هذه المضخة معطلة: «ستة آلاف دولار؟ نعم، نعم، عظيم. ابدؤوا العمل. ابدؤوا العمل».

وبعد ذلك زرنا محطة وقود الزعفرانية التي كانت أيضاً من مسؤوليات بريور. في البداية، سخَّر جهده لجعل الزبائن ينتظرون في صفوف منظمة. قال بريور: «أنت تحاول بطرق كثيرة أن تعلّمهم طريقة جديدة للقيام بالأشياء، قد تكون كلمة تعليم خاطئة، فهم أناس قادرون ومؤهلون وأذكياء، نحن فقط نعطيهم طريقة مختلفة لحلّ مشكلات محددة».

كانت مهمّة بريور حلّ خلاف بين إدارة محطة الوقود وبين المجتمع الممثل في عدد من أعضاء مجلس الحيّ. عقد اجتماع في مكتب الإدارة المجهّز بمكيف هواء لا يبرّد بشكل كافٍ. أراد أعضاء المجلس تخصيص ثلاث مئة ليتر من المازوت أسبوعياً لمولّدات الحيّ، أما المديرون فأرادوا إذناً خطياً من وزارة النفط. أخرج أعضاء المجلس عدّة تصريحات موقعة من قبل ضباط أمريكيين. حاول بريور دفع الحوار للأمام، لكن العراقيين استمروا في الجدال، إلى أن أصبح من الواضح أن المشكلة أصبحت أكثر من خلاف حول المازوت، فقد تمت إزالة واحد من أكثر الأنظمة هرمية وتدرجاً في العالم بين يوم وليلة تقريباً، ولم يحلّ محله نظام آخر حتى الآن. ومجالس الأحياء كانت عبارة عن أجنة غير مكتملة النمو لحكومة محلية. لجأ العراقيون المشوشون المحبطون الذين لم يسمح لهم بالقيام بأي مبادرة من قبل إلى الأمريكيين، الذين بدا أن لديهم كل السلطة والمال، أما الأمريكيون الذين لم يكونوا يرون أنفسهم محتلّين فقد حاولوا إجبار العراقيين على العمل في مؤسساتهم، لكن المؤسسات كانت مفككة إلى درجة كبيرة.

كان الذباب يقف على شعر بريور القصير. قال لأعضاء المجلس: «ياشباب، لقد تحدثنا عن هذا مدة عشرين دقيقة، افعلوا كما أقول لكم. اذهبوا إلى وزارة النفط، قوموا بذلك فقط، هذا فقط. وعندها لن يكون عليكم أن تحتفظوا بكل هذه الأوراق، ولن يكون علينا أن نتحدث».

كان الجميع قد بدأ يغضب. وقد قال أحد أعضاء مجلس الحي لبريور: إن العراقيين الآخرين يشكّون بأنهم يجنون ملايين الدنانير من الخدمات العامة. كانوا يعدّونهم متواطئين؛ وقد تم تهديد حياتهم.

غيّر بريور لهجته وخفف من الضغط: «سأخبركم جميعاً بصراحة أن أمامكم عملاً شاقّاً جدًّا»، وقال: «نحن لا ندفع لكم، كما أن شعبكم غاضب ومحبط، وأنا أعلم أنهم يفرغون غضبهم عليكم، وأنا أشكركم بالفعل على ما تقومون به. ربما لا يفهمون أو يقدّرون ذلك الآن، لكنني أقول لكم: إن جهودكم هي التي ستغيّر هذه البلاد».

كانت هناك مشاجرة خارج المكتب، أصوات عالية متّهمة. ارتدى بريور خوذته وسترته المضادة للرصاص، وتحسّس بندقيّته، وخرج إلى مضخات الوقود. ترك الزبائن الذين كانوا ينتظرون في صف طويل سياراتهم واحتشدوا، ومما زاد الأمور سوءاً أن الجنود الذين كانوا يقفون قرب عربات الهامفي كانوا يحاولون التدخّل. وفي وسط الفوضى أثبت بريور أن أحد موظفي وزارة النفط قد أتى لجمع عينات من المازوت من كل محطات الوقود؛ لإجراء الاختبار الروتيني. وكان أحد أعضاء المجلس يتّهمه بسرقة البنزين.

فقال بريور: «لا اتهامات. دعونا نذهب ونرَ».

تبعه الجمع تحت الشمس المحرقة إلى شاحنة موظف الوزارة، كان في الخلف خمس صفائح معدنية. فتح بريور الصفيحة الأولى محاولاً أن يثبت وجهة نظره وشمّ وقال: «مازوت». وفتح الثانية: «مازوت»، وبينما كان يفتح غطاء الصفيحة الثالثة وينحني ليشمّها، انطلق رذاذ المازوت الساخن على وجهه.

سكت الجميع. وقف بريور دون حراك محاولاً ضبط نفسه. أغلق عينيه وعصرهما وضغط عليهما بأصابعه. كان الوقود على خوذته، وسترته. أسرع إليه جندي بزجاجة ماء، ثم عاد كورس الصياح يعلو من جديد.

صـاح بريور: «اصـمتوا جميعاً! فأنا سـأحلّ الموضوع. ما المشـكلة؟ لا اتهامات». بدأ وقد تعرّق وجهه يطلب من عضـو المجلس الذي يوجه الاتهام، الذي بدا خجولاً: «اذهب وأحضـر عامل المحطة الذي باعه البنزين».

- «لا أستطيع إلا أن أحضر الرجل الذي باعه المازوت».

- «إذاً، كيف تعرف أن شخصاً ما أعطاه بنزيناً؟ هذا درس مهم لكم جميعاً!» كان بريور يتحدث إلى الجمع الآن، بينما كان مترجمه ينقل الدرس إلى اللغة العربية بشـكل مسـعور: «لقـد خرجتـم هنا، وقلتم: إن هذا الرجل لص، والجميع غاضـب وسـيتم طرده، وها أنتم تتراجعون الآن».

قال عضو المجلس: «لم يكن ذلك مجرّد اتهام، لقد قاد الرجل سيارته على الجانب الخاطئ».

- «لكـن مـا دليلك على أنه فعل ذلك؟ انتظر! تريّث! أنا أحاول أن أوضـح فكرة هنا. هل يعجبـك أن يقتحم جنودي بيتك؛ لأن جيرانك قالوا: إن لديك أسـحلة من طراز R.P.J، وأنا لم أرها لكنني اقتحمت منزلك، فكيف ستشعر؟ توقف عن اتهامه، حباً بالله».

- أصرّ عضو المجلس: «لقد أمسكته بالجرم المشهود».

- «كلا لم تفعل».

- «حسناً، لا مشكلة».

لم يكن بريور يترك الموضـوع يمرّ هكذا: «بل هناك مشـكلة. المشـكلة أنكم أيها الناس، تتّهمون بعضكم دون دليل. هذه هي المشكلة».

انتهت محاضرة بريور حول عدم وجود دليل، وما يجب فعله، وتفرّق الجمع، وتمّ استئناف الاجتماع في الداخل. حاول بريور أن يضـحك من الحادثة، ويتجنّب النظر إلى وجه المتّهَم. «مـن لا يحب المـازوت في عينيه؟ أعني. الجميع يحبّه»، وفيما بعد قال لي: «أتمنى لو أنني لم أفقد أعصابي. لم أغضب بسبب المازوت، وإنما من الطريقة التي كانوا يتشاحنون بها».

وبعد الظهر دعاني اثنان من أعضاء المجلس، هما أحمد أوغلي وعبد الجبار الدويش، للغداء. كان الرجلان فقيرين، ولم يكن لأي منهما بيت يدعوني إليه؛ لذلك أكلنا في غرفة الجلوس ببيت صهر أوغلي، وجلسنا على الوسائد. قبل أن يكون الأمر خطراً عليهم وعلي، دعيت إلى تناول الطعام في بيوت عدد من العراقيين، وكان الكرم المشهور لدى العرب يعني دائماً أن نجلس عدة ساعات، ونحن نتناول أطباقاً متنوعة من الحمّص والخبز العربي، والمقبلات الباردة، وحساء الفاصولياء، والدجاج والأرز، والحلويات، والشاي، والبيبسي (الذي لم يكن متوافراً أيام صدام، وكان من علامات البذخ). كانت النساء اللائي لا نراهن في البيت قد جهّزن أكثر جدًّا مما يمكن لأي شخص تناوله، وكانت كميات كبيرة من الطعام ترمى.

وعند اقتراب الوجبة من نهايتها، قال أوغلي، عضو المجلس الذي كان مدرّس رياضة يبلغ الثالثة والثلاثين من عمره: «من الجيد أن جون بريور فقد أعصابه، كانت مشكلة اليوم صغيرة، ولو أخبرتك عن مشكلاتنا، فلن تصدّق. لقد أنهكونا»، كان أعضاء المجلس يعملون دون مقابل، دون أجر، حتى إنهم لم يكن بمقدورهم الحصول على أجهزة هواتف خليويَّة أو نفقات سفر من وكالة الاستخبارات الأمريكية. وكان منزل عضو آخر من أعضاء المجلس شبه مدمّر (وقد قُتل ستة من جيرانه) بصاروخ ضالّ أطلقه الجنود الأمريكيون بالخطأ، وهم يتخلّصون من المدفعية العراقية التي لم تنفجر، وكان هناك تدقيق في جهوده للحصول على تعويض في كل مرة، قال أوغلي: «بريور يبذل أكثر من جهده، لكنه أيضاً محكوم من قبل قادته».

كان دويش، وهو أب لأربعة أطفال وعاطل عن العمل، قد قضى ثماني سنوات في السجن في عهد صدام لانتمائه لحزب الدعوة الإسلامي (حيث التقى بالشيخ عماد الدين العوضي وسمع موعظته عن نظام حكم بيد رجال الدين). وعلى الرغم من أن ذلك لم يكن ممكناً بعد، فما زال يأمل بقيام دولة إسلامية في المستقبل، كما كان حال 80 بالمئة من العراقيين، حسبما أضاف.

قال أوغلي: «هذا رأيه الشخصي، ليس ثمانين بالمئة».

في الوقت الحاضر، رأى دويش أن العمل مع القائد بريور في مجلس الحي أفضل طريقة يخدم بها بلده. كانت توقعات العراقيين تسقط على رؤوس أعضاء المجلس، وكان دويش يعتقد أن الموظفين الأمريكيين الأعلى مستوى من بريور لا يهتمّون بحلّ المشكلات.

قال أوغلي: «الناس يتفرّجون، وحين أعود ليلاً يكونون في الانتظار، إنهم يريدون أن يعرفوا ما نفعل. في الأسبوع الماضي أخبرتهم عن المدارس، ومشروعات الصرف الصحي. كانوا سعداء، لكن هذه مشروعات قديمة جدًّا، وكانوا قد وعدوا بها منذ وقت طويل».

اقترح دويش أن يعطي الأمريكيون مئة دولار لكل عائلة عراقية. وهذا من شأنه أن يخفف من إحباط الناس، وقد قال دويش: «لا أعلم لماذا لا يقوم الأمريكيون بهذه الأمور، فالعراقيون يجدون صعوبة في فهم الأمريكيين».

فقال أوغلي: والأمريكيون أيضاً لا يستطيعون فهم العراقيين جيداً، «فلم يأتِ الأمريكيون إلى هنا لفهم الناس. لقد جاؤوا إلى هنا لتأدية عمل، وهذا ما سيفعلونه. والعراقيون يعملون معهم عن قرب، لكنهم لا يحاولون فهمنا». والنتيجة، كما قال أوغلي أن إنجازات الأمريكيين في العراق ستكون محدودة.

كان الأمريكيون يستخدمون عبارة للإشارة إلى عادة العراقيين بتسليم بعضهم. وقد استعملها بريور مرة: «هؤلاء الناس يبيعون بعضهم كأن الغد لن يأتي»، بهذه الخيانات، لعب العراقيون على مخاوف الجنود وجهلهم، وجرّوهم إلى عداوات شخصية ليس للأمريكيين سبيل للخوض فيها.

في الليلة التي أعقبت الاجتماع في محطة الوقود خرج بريور وبضع عشرات من الجنود من فرقة تشارلي في عربتي همفي (غير مدرّعتين، وحتى إن إحداهما بلا أبواب) وعربتي برادلي للبحث عن مشتبه فيه من ميليشيا الفدائيين. استخدم بريور لهذه المهام مترجماً آخر: بدلاً من مهندس الخطوط الجوية العراقي المسن الذي يتمتع ببصيرة ثقافية لا تقدّر بثمن في أثناء الاجتماعات اليومية، كان المترجم الليلي شاباً ضخماً عدواني السلوك. توقعت أن أرى الجانب الأقسى لبريور وفرقة تشارلي في تلك الجنة، فقد كانوا جنوداً في النهاية، لا مهندسين مدنيين.

صادف أن اسم المشتبه به صدام حسين، وكان على قائمة الأهداف عالية الأهمية، ورقمه 497، وكانت تلك هي الزيارة الثانية التي يقوم بها الأمريكيون لمنزله. كانت الإخبارية قد أتت من مخبر سمّاه بريور المخبر البدين، أظهرت صورته شاباً سميناً يرتدي بذلة رسمية ويقف أمام خلفية إستديو عليها قلوب زهرية اللون، كان رجل الاستخبارات قد سلّم ثلاثة رجال في الجوار، منهم صهره. والليلة كان من المفروض أن يظهر في بيت أخته، القريب من بيت صدام حسين، في شاحنة نفايات برتقالية اللون محمّلة بالأسلحة، عملية فخّ. حذّرني لاهان قائلاً: «من كل مئة إخبارية تردنا من مخبرين عراقيين تنجح واحدة».

كان بريور قد وصل مؤخراً إلى اكتشاف مهم، فقد كان وجنوده يفتشون بيت رجل فيما تبيّن أنه اتهام كاذب. قال بريور: «وأدركت أننا في القمة. لقد سقطت روما، وسقطت اليونان، وفكّرت أنني أحب كوني أمريكياً. أحب أن أكون في القمّة، ولن تبقى في القمّة إلا إذا كان هناك أناس يريدون الدفاع عن ذلك». لم يكن ذلك شعوراً بالنصر، وإنما بالوضوح، ونوع محدود من التعاطف. «فكّرت: ماذا لو فعل أحدهم ذلك مع عائلتي؟ سأكون في غاية الانزعاج. وماذا لو لم أستطع فعل شيء حيال ذلك؟ وفكرت أنني لا أريد أن يحصل هذا لي أو لعائلتي، ونحن بحاجة إلى المحافظة على التفوق، لنبقى القوة العظمى الأولى».

كان هدف الليلة قرية على طريق قذر، على شبه جزيرة، حيث يتفرّع نهر ديالى. وعند الغروب، توقف بريور عند ساحة ترعى فيها الأبقار. جاءت امرأة في منتصف العمر إلى البوابة. كانت شقيقة صدام حسين وزوجة أحد الرجال الذين قبض عليهم بريور في الزيارة السابقة.

قالت المرأة: «صدام حسين الرئيس؟ إنه ليس هنا»، وضحكت بعصبية، لكن بريور لم يضحك؛ لم تكن روح الفكاهة لديه ظاهرة الليلة. قالت المرأة: «لقد رحل صدام حسين مع زوجه وأولاده، ولا أعلم أين ذهبوا».

قال المترجم لبريور ببطء: «إنها تكذب»، فقال بريور للمرأة: إنه يريد تفتيش البيت. وكانت امرأة يبدو عليها المرض تحاول تهدئة رضيع يبكي.

لم يظهر تفتيش غرفة النوم شيئاً: صور لشاب مع صديقته، مذكرات حب، صور فتيات عربية. قال بريور: «آه، هذا لطيف، إنها حمالة صدر ملفوفة بالبلاستيك».

عدت إلى غرفة الجلوس التي كانت شبه فارغة، ليس فيها إلا تلفاز. يعرض فيلماً مصريّاً قديماً، دون صوت. كانت المرأة التي تحمل الطفل تتقيأ في الممر، قالت المرأة التي في منتصف العمر باللغة العربية: «لقد كنا سعداء حين أتيتم أيها الأمريكيون، للتخلص من الديكتاتور، وها أنتم الآن تفتّشون بيتنا، هذا مفاجئ»، كان ولداها اللذان في السادسة والعاشرة من العمر يقفان عند الجدار ويحدّقان في الجنود. ففكرت في أنهما لن ينسيا هذا أبداً، غرباء ضخام يرتدون لباساً موحّداً، ومعهم بنادق، كانوا قد جاؤوا مرة إلى منزلهم وأخذوا والدهما، ويتكلمون لغة غريبة، ويجولون في بيتهما، ويخرجون الأشياء من الخزائن.

ظهر أن غرفة النوم التي فتّشها بريور هي الغرفة الخطأ. كانت غرفة صدام حسين مقفلة، ولم تستطع المرأة إيجاد المفتاح. أحضر أحد الجنود فأساً، وبثلاث ضربات من الحافة غير الحادة كسر الباب، فارتفع صوت تقيؤ المرأة الشابة، هذا التفتيش كان بلا فائدة أيضاً؛ إذ كان صدام حسين قد رحل منذ زمن.

حلّ الظلام ونحن في الداخل. وبينما كنا نغادر كان المترجم يقول للمرأة بتوبيخ ساخر: إن أخاها مطلوب؛ لأن اسمه صدام حسين. وحين سمع بريور هذا قال: «أخبرها الحقيقة، إنه مطلوب؛ لأنه من الفدائيين». وعند الصباح كنت متأكداً، فستنتشر ملاحظة المترجم في أرجاء الحي بوصفه مثالاً على عدالة الأمريكيين؛ اعتقال دون أساس، واتهام بلا دليل.

قالت المرأة لبريور: «لماذا أخذتم زوجي»؟

«لأنه من الفدائيين. إنه من حزب البعث».

«لا! لا! لا!»

قال بريور للمترجم: «أخبرها أنه رهن الاعتقال، وإذا كان مذنباً، فسيبقى في الحجز، وإذا لم يكن كذلك، فسيتم إطلاق سراحه». (وبعد أيام قليلة أُفرج عن زوجها).

وفي الطريق أمام البيت، أضاء بريور مصباحه الكاشف على رجل عجوز يجلس على الأرض: «لماذا كذبت علي في المرة الماضية، وقلت: إنه قد خرج اليوم؟ أخبر صدام حسين أنه هارب من عدالة التحالف، وحين يعود عليه أن يسلّم نفسه لقوات التحالف فوراً. لنذهب، لنخرج من هنا».

ابتعدنا أكثر، وقد تركنا المركبات أمام سياج مرتفع. كان المنزل الذي خلف السياج هو منزل أخت المخبر البدين، تحرّك بريور ومعه جندي آخر أمام السياج تحت أشجار النخيل وضوء القمر الكامل، كان النسيم يهب من النهر، نادى بريور في السكون: «السلام عليكم».

التفت المترجم إلي قائلاً: «كما في فييتنام».

كنت أفكر التفكير نفسه. كنت أعلم أن التشابه محدود. لكن في الوقت الحاضر أشعر أن العراق مثل فييتنام. فقد كان الأمريكيون يتحركون شبه عميان في تضاريس غريبة، ويفقدون فريستهم ويتركون وراءهم نساء مذعورات وصبياناً مع ذكريات.

لم يكن هناك أثر للمخبر البدين أو شاحنة النفايات البرتقالية المحمّلة بالأسلحة. لم تكن أخته قد رأته منذ شهر، وقد قالت للمترجم: إنها حين تراه ستقتله؛ لأنه سلّم زوجها.

أدرك بريور أنه قد جُرّه إلى عداوة عائلية. قيل لأخته: إنهم سيطلقون سراح زوجها. سمّى بريور هذه اللحظة «لحظة القلوب والعقول»، لكن الأخت لم تبدُ ممتنّة.

سأل بريور لاهان في طريق العودة إلى القاعدة: «ماذا تظن، أيها الرقيب أول»؟

قال لاهان: «أظن أن علينا أن نبتعد عن أي معلومات من المخبر البدين»، لقد تحول المخبر البدين من مخبر إلى هارب.

تعجّب بريور من عدد القصص المتناقضة ظاهرياً التي سمعها من الأشخاص ذاتهم في أثناء زيارتيه للحي. اعترف أنه لن يدرك حقيقة ذلك. قال بريور: «أنا لست شارلوك هولمز»، ثم تكلم بصوت خالٍ من التعبير: «أنا لست إلا رجلاً عادياً، أحاول أن أتدبّر الأمور، كان عالم الجنود غير مألوف لي». كان عالماً قائماً بذاته، له لغته الغريبة الخاصة وحركاته وقواعده ورموزه التي لا تنتهي، فقد كنت أشعر بالترحاب في صفوفهم المعزولة في كل

الأوقات تقريباً، كانوا يستمتعون بالحديث عما يقومون به، مما جعلهم يشبهون العراقيين، ومما يفسّر عودتي كل مرة أكثر من أي شيء آخر. كانوا شباباً عاديين، ومع ذلك حين كان أحدهم يتحدث عن حياته في وطنه والبيتزا المفضلة لديه، وشهادته في التاريخ - كنت أشعر بقشعريرة عندما أذكر أن هؤلاء الرجال والنساء (القليلات) الذين لا يستمتعون بأي حرية شخصية أو خصوصية تقريباً، الذين يبدو أنهم أكثر وعياً من أي شخص قابلته في أمريكة في سنّهم، الذين يواجهون يومياً توقع حدوث الخطر والموت بثقة، لقد جاؤوا من ثقافتي ذاتها التي لا تهتم إلا بنفسها. كان أجر بريور بوصفه قائداً مسؤولاً عن 150 جندياً 53.100 دولار أمريكي. وقد ذكر لي هو ولاهان مرة أنهما لم يقلقا أبداً من الموت، أبداً. كان هذا عملهما الذي تدرّبا على القيام به، ولا يستطيعان القيام به إذا سمحا للأفكار العادية بالظهور. إنهما مقولبان للحياة من أجل وحدتهما ومهمتهما التي يفضلان أن تكون أكبر. وقد جعلتهما الحياة العسكرية غير أمريكيين بشكل غريب.

أستطيع أن أعدّ تجاربي غير السارّة مع الجنود على أصابع اليد الواحدة، وهي المواقف نفسها بشكل أساس. مرة تُهْنا أنا والسائق وسط أنقاض قاعدة الرشيد الجوية الكبيرة في جنوب بغداد، وفيها الآلاف من الناس الذين يلتقطون ما يريدون من المباني المقصوفة. كنا نحاول أن نجد مدخل معسكر بريور، وكنا لا نستطيع إلا تحديد موقع فتحة في الأسلاك الشائكة التي كانت المركبات العسكرية تدخل وتخرج منها. وحين اقتربنا ظهر جنديان عند الممر. نزلت من السيارة (سيارة عراقية قديمة من طراز كابريس كانت مفيدة؛ لعدم لفت الأنظار)، ولوّحت بيدي، وأنا أصيح بهم: إنني أمريكي. رفع أحدهما بندقية م - 16 وصوّبها نحوي بحذر، بينما أشار الآخر إلي أن أتقدّم رافعاً يديّ للأعلى. كان من المثير للأعصاب السير في مرمى ذلك السلاح، بينما أمشي خمسين ياردة نحو موقعهما، مع محاولة الاحتفاظ بابتسامة أمريكية ودودة على وجهي. وحالما وُضِّح سوء التفاهم، أشارا إلى بوابة الدخول الرئيسة التي تبعد نصف ميل على الطريق. وفي مناسبة أخرى، كنا ننتظر لقاء شخص عند نقطة تفتيش قرب جسر 14 تموز في المنطقة الخضراء، التي كانت مسرحاً للعديد من عمليات التفجير الانتحارية. لم ألحظ الإشارة المكتوبة باللون الأحمر باللغتين العربية والإنكليزية التي تهدد باستخدام قوة مميتة ضد أي شخص يقف، حيث

كانت سيارتنا تقف بالضبط إلا حين نظر جندي إلى نافذتي وبدأ يصرخ بأنه كان وشك على إطلاق النار.

وفي الطريق السريع من كركوك إلى بغداد، كنت مع سائق آخر حين مررنا بمجموعة دعم كبيرة عند نقطة تفتيش أمريكية. قرّر السائق أن يقطع الخط، وكان يسرع بينما كان جندي يخرج ويصوّب بندقيته نحونا. وقفنا ونزلت وبيدي بطاقتي الصحفية، لكن رؤيتها جعلته يزداد غضباً، صاح بي: «أنت ستتسبب في قتلي، إنهم يرونني أسمح لأمريكي بالعبور وهم يريدون أن يطلقوا النار علي. لا تفعلوا هذا ثانية! لا، لا تحاول مصافحتي، سيرونك، ارجع فقط إلى السيارة وقف في الصف»، كان جديداً في العراق وكان يتمتم: كان العراقيون يشكلون له مصدر تهديد سلفاً. أما النداء الأقرب فقد أتى حين كنت أتجه بالسيارة نحو بغداد على الطريق السريع الصحراوي من الأردن، وكانت حركة المرور متوقفة تقريباً خلف قافلة أمريكية. وخلافاً لتعليمات كل من كان في سيارة السوبربان، استمرّ سائقي الأردني الذي كان على عجلة من أمره، في التقدّم من المركبة الخلفية التي استمرّ قنّاصها، وكان مراهقاً يظهر عليه الخوف، بالتلويح لنا بالعودة للخلف. فجأة كان هناك إطلاق نار، أصابت الطلقات التحذيرية الإسفلت أمامنا. ولم يمضِ من الوقت إلا قليل حين وقفنا، وقد تسطحت إحدى العجلات في منتصف الطريق بين الرمادي والفلوجة، وبينما كان السائق يغيّر العجلة، ظهرت سيارة سوداء من طراز BMW، فيها أربعة رجال يحدّقون فينا بقسوة، على الطريق المتسخ الموازي للطريق السريع، بقيت السيارة تسير حولنا عشر دقائق، يمرّون باتجاه ثم بآخر. انتظرنا داخل سيارة السوبربان بلاحيلة. أخيراً بدا أن السيارة تتابع سيرها حين توقف أحد أقارب سائقنا، وسارت سيارة الـ BMW كقرش خاسر يسبح بعيداً عن فريسته.

كل هذه المصادفات كانت نتيجة لاقتراب سخيف من جنود مدججين بالسلاح وصحافيين يجولون بحرية فيما لا تزال المنطقة، بالرغم من كل شيء، منطقة حرب، لا يفهم فيها أحد القواعد حقًّا. ولو كنت عراقياً، أو لو حدثت أي من تلك الحوادث بعد أشهر قليلة، لكانت النتائج أسوأ.

كان تصرّف الجنود الأمريكيين نحو العراقيين أقل انضباطاً في العادة. ومع مرور الوقت ازدادت التفجيرات الانتحارية، وأصبحت نقاط التفتيش خطرة جدًّا. وقد وقع كثير جدًّا

من العراقيين، وأحياناً عائلات مع أطفال تحت وابل من الرصاص، حين لم يستطيعوا فهم الصف المحيّر للإشارات وحركات اليدين، والأوامر التي يصيح بها الجنود باللغة الإنكليزية. لا أحد يعلم كم من العراقيين ماتوا في أوضاع مشابهة؛ لأن الجيش الأمريكي أصدر تعليمات بعدم إحصاء القتلى المدنيين، وعدم إجراء التحقيقات إلا تحت ضغوط استثنائية. لكن بعيداً عن هذه المآسي، حتى الصراخ من الاعتداءات اليومية ومنظر الرجال مكبّلين مرميين على الأرض أدى دوراً حاسماً في تكوين الانطباع الأول لدى العراقيين عن الاحتلال. وكان ذلك غالباً أول لقاء مباشر لهم مع أي من الآلاف من الجنود الأمريكيين في العراق.

لا بد أن يكون الوجود الأمريكي أكثر احتلال معزول في التاريخ. لم تكن هناك طريقة فعلية لاختلاط الجنود بالعراقيين خارج سياق عملهم. كانت بغداد مختلفة كلّياً عن سايجون، إذ لم يكن هناك أماكن يرتاح فيها الجنود الذين يواجهون المتاعب. كان الجيش يمنع العلاقات مع النساء العراقيات، وكانت مستحيلة تقريباً على أي حال؛ بسبب القيود الاجتماعية. كان الجميع يعلم أن العلاقات الحميمية خطرة، ولم يكن من المستغرب إلى حد ما، حين دخلت امرأة عراقية كانت تعمل في قاعدة أمريكية إلى ثكنة جندي كان يفترض أنها على علاقة معه، وانتهت ميتة برصاصة في رأسها. حتى إن بريور الذي كان يعمل مع العراقيين عن قرب شأنه شأن أي جندي في البلاد، لم يدخل بيت أحد بصفته ضيفاً إلا مرة واحدة في أثناء الأشهر الخمسة عشر التي قضاها في العراق، حين توقف أمام بيت مترجمه وصديقه المقرّب نعمان النعمة. لكن منظر المركبتين العسكريتين الواقفتين أمام البيت محاطتين بعدد من الجنود لفت نظر جيران المترجم. وطلب إلى بريور ألا يكرّر الزيارة.

سبّب التوتر الناتج عن القيام بالدوريات وعمليات الدهم، وواجبات نقاط التفتيش يومياً، مع التعرض إلى هجمات أكثر من عراقيين لا يرتدون لباساً موحّداً، ويقودون سيارات لا تحمل لوحات، درجة من الوحشية ربما كانت حتمية، لكن بعضها كان يمكن تجنّبه، وكانت تتعلق أكثر بمشكلات فردية، وقيادة ضعيفة، أكثر منها بطبيعة الاحتلال وحرب العصابات.

في إحدى الليالي، حين كنت في مدينة كركوك الشمالية، خرجت في دورية مع جنود من اللواء 173 المحمول جوّاً الذي كان يسيطر على المدينة. وعند مركز للشرطة، كان رجال الشرطة المحلية قد اعتقلوا رجلين عراقيين في أواخر العشرينيات من عمرهما، كانا

معصوبَي العينين بشرائط من القماش، وكان قميصاهما الأبيضان ممزقين وعليهما دماء، وكان ظهراهما مجروحين. قال رجال الشرطة: إنهما حاولا دخول نقطة التفتيش، وحطّما السيارة. أظهر التفتيش أن في السيارة قطعاً من قنبلتين قديمتين. أصرّ أحد الرجلين، وهو سائق تاكسي، أن القنبلتين كانتا للصيد، وقال الآخر: إنه كان راكباً في السيارة، ولا يعلم شيئاً عن القنبلتين. ويشتبه الآن بأنهما متمرّدان، وقام الأمريكيون بأخذهما إلى الحقل الجوي، حيث كان يوجد سجن مؤقت يضم نحو مئة سجين.

كانت الأسلاك والأضواء تتقاطع في الحقل الجوي. وفي الجانب الآخر من حقل قذر من الزنزانات التي تشبه الصناديق كان هناك باب خارجي يوصل إلى باحة محاطة بالقضبان المعدنية والأسلاك الملفوفة. وضع المشتبه فيهما في الباحة، وكانت أيديهما مقيّدتين خلف ظهريهما. كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة، ولم يكن الجنود الذين عليهم مناوبة الحراسة سعداء برؤية المزيد من العمل يصل إليهم. انهال جندي شاب يرتدي كنزة خضراء، وله حاجبان غامقان وتقاطيع وجه دقيقة كالأطفال، بوابل من الشتائم على باحة الاحتجاز.

زمجر الجندي: «سأوسعكما ضرباً، سأقطّعكما». بدا أحد السجينين، وهو الراكب، مرتبكاً وخائفاً بعض الشيء. أشار إلى أنهما يحتاجان إلى التبول. «ما بالك، ألا تستطيع الانتظار؟! أيها الوغد الغبيّ. كان من الممكن أن أكون في السرير الآن، أيها الغبيّ».

طلب قائد الدورية، وهو عريف شاب اسمه جون آدامز، إحضار السائق لاستجوابه.

صاح الشاب الوسيم: «هيا أيها البطيء، تعالَ إلى هنا، لا، الرجل الآخر، نعم، أنت أيها الكسول، قف، قف». أحضر السائق خارج الباحة، وأزيلت قيوده. لم يبدُ خائفاً على الإطلاق -كان على وجهه أثر للغرور- مما أغضب الشاب الوسيم. «سأكسر رأسك المخيف».

بدأ آدامز يسأل السائق، ويملأ ورقة، وهو جالس إلى طاولة نزهات. من أين حصلت على القنبلتين»؟

قال السائق، واقترب ليشير إلى القنبلتين على الطاولة: «هذه لي. أما الأخرى فقد وضعها رجال الشرطة في سيارتي».

قبض الشاب الوسيم على يده وسحبه بعيداً. «إذا لمس تلك القنبلة مرة أخرى فسأكسر رأسه اللعين». كان هناك خيط أبيض عالق على شعر السائق، فقام الجندي الذي كان يضع له رقم سجين بسحبه. زمجر الشاب الوسيم: «هذا جميل».

سأل آدامز السائق: هل تخدم في الجيش؟»، كان قد خدم أقل من عام قبل أن يهرب. «حزب البعث؟» أشار السائق إشارة سريعة ثابتة بأن يديه نظيفتان من حزب البعث، ثم تحدّث حديثاً قصيراً.

وقبل أن يتمكّن المترجم من نقله إلى اللغة الإنكليزية، تدخل الشاب الوسيم. «هل يقول كل هذا الهراء ليقول: لا؟ لا أستطيع أن أتكلم العربية إلا لأقول له أن يخرس».

قال المترجم، وهو يشير إلى الراكب: «هذا الرجل عطشان جدًّا، إنه بحاجة إلى الماء».

«سيحصل على الماء عندما يركع. أخبره أن هذا ليس فندقاً، هذا سجن، لسنا هنا من أجل راحتك».

لم يكن ذلك سجن أبو غريب، لم يكن إلا بشاعة شاب يشعر بالملل، وربما ساديّ في موقع قوة مؤقت. لكنني غادرت الحقل الجوي في تلك الليلة، وأنا لا أشعر بالارتياح. لقد ألقيت نظرة تحت السطح على الاحتلال، لا بد أن هناك المزيد.

كان العراقيون يشتكون من أن الأمريكيين لم يعرفوا كيف يكونون محتلّين. كانت القوات البريطانية في الجنوب، ومعظمهم من المحاربين السابقين يبدون مرتاحين أكثر بكثير بالغموض الملازم لعمل الشرطة والشؤون المدنية. أما الأمريكيون فقد كانوا لطفاء جدًّا وقاسين جدًّا في الوقت نفسه. كان اللطف والقسوة يبدوان جانبين موحّدين لشخصيتهم: أحببني وإلا قتلتك. كانوا قد سمحوا بأعمال النهب، كما يقول العراقيون، كما كانوا يسمحون للمجرمين والمتطرفين بإدارة البلاد، وفي الوقت ذاته، حوّلوا أصدقاءهم إلى أعداء بردود أفعالهم المتهورة والعنيفة؛ وقد روت صحيفة The New York Times قصة تاجر في الحادية والخمسين من عمره، ويعاني مشكلات في القلب، قام الجنود بركله وضربه والتبوّل عليه عند اعتقاله، ثم قاموا بإرساله إلى مشفى عسكري، حيث عُولج بشكل جيد، كما يعالج

جندي مصاب في السرير المجاور، فقال للممرّضة: «أنا فعلاً محتار. في القاعدة، ضربوني وعذّبوني. وهنا يعالجونني على أنني إنسان».

مرة حضرت اجتماعاً بين ثلاثة من صغار الضباط الأمريكيين في الكاظمية وشيخي عشيرة سنيين من الأدهمية، المنطقة التي تقع على الضفة الأخرى للنهر. كانت الصواريخ تطلق من حيّهما الواقع على نهر دجلة على القاعدة الأمريكية، وأراد الضباط من الشيخين مساعدتهم في إيقافها.

أشعل أحد الشيخين، وكان يرتدي عباءة ذات حواشٍ ذهبية وكوفيّة سيجاراً وحثّ الأمريكيين على تقليد البريطانيين في البصرة قال لهم: «لا أقصد أن أجرح مشاعركم، لكن ليس لديكم أي خبرة هنا»، «يجب أن تدرسوا الناحية النفسية، وتدرسوا المجتمع والدين. لهذا ليس لديهم مشكلات».

قال القائد الأمريكي: «السبب أن لديهم تاريخاً طويلاً من الاستعمار»، نحن لا نهتم بهذا. نحن لا نريد البقاء هنا وإدارة العراق».

نفخ الشيخ في السيجار، وابتسم: «الأمريكيون بحاجة إلى درس من البريطانيين».

وبدأ الشيخ موّال الشكاوى المألوف: انقطاع التيار الكهربائي، والوضع الأمني، ونقاط التفتيش، وإساءة معاملة النساء في أثناء عمليات الدهم، وعدوانية الأمريكيين، وسلبية الأمريكيين. نصبَّب الجنود عرقاً بشدة في ستراتهم المضادة للرصاص، وهم يرتدون الخوذات ويحملون أسلحة م 16. وكان واحد منهم يحاول الدفاع بين حين وآخر.

قال الشيخ: «هناك متفجرات على الطريق السريع».

أجاب الرائد: «نحن لا نستطيع مراقبة كل بوصة من الطريق، وهذا ما نحتاج فيه المساعدة التي لا نحصل عليها».

تجاهله الشيخ، وتابع قائلاً: «كما أن الساعة الرابعة صباحاً وقت مبكر جدًّا لانتهاء حظر التجوال».

وأخيراً، بدا أن أحد الشيخين أشفق على الضباط الأمريكيين الذين كانت خبرتهم أقل جدًّا في هذه اللعبة القديمة للمفاوضات التي كان يبدو أنها من اختصاص شيوخ العشائر والموظفين البريطانيين. فأنهى الانتقاد بأضعف ثناء ممكن: «إذا كان لنا الخيار بين النظام السابق وهذا النظام، فإننا نختار هذا».

قال القائد، وهو يحرّض نفسه: «لكن هذا ليس نظاماً، فنحن هنا للمساعدة. من المهم أن تفهموا ذلك. نحن لسنا هنا لفرض نظام. أتمنى أن يأخذ شخص في الكاظمية عملي وأعود إلى وطني».

فقال الشيخ حكمة مبهمة: «إذا كنتم تقودون مركباً، فلمَ تحرقونه؟».

انتهى الاجتماع بالمصافحات، والأيدي على القلوب، والعرض المقصود للحساسية الثقافية والاحترام المتبادل، الذي كانت تلك اللقاءات تبدأ به وتنتهي به. تخيّلت عودة الضباط إلى قاعدتهم غاضبين. فالفكرة الرئيسة للاجتماع -الهجمات الصاروخية- لم تكد تُذكر.

كان الجنود يخرجون إلى الشوارع، ولذلك أحسّوا بصعوبة الاحتلال قبل سلطة الائتلاف المؤقتة التي كانت في القصر. كانوا على الخط الأمامي للشكايات: سألت امرأة تقف أمام منزلها ملازماً في دورية راجلة، وليس مستشاراً كبيراً لوزارة الكهرباء عن سبب انقطاع التيار الكهربائي باستمرار؟ فكان عليه أن يشرح لها أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً حيال ذلك. كما كان الجنود أقل استثماراً في تصوراتهم المذهبية المسبقة، وعلى الرغم من أنهم كانوا في الغالب جاهلين بشكل محزن بالبلاد والمنطقة، فقد أرغمتهم طبيعة عملهم على أن يكونوا واقعيين. كان اجتثاث حزب البعث وحلّ الجيش العراقي مكروهاً من الجيش الأمريكي؛ كان الجنود يفقدون أحياناً أكثر نظرائهم جدّية في العمل حين يبدؤون بتكوين علاقة معهم، وسرعان ما يكتشفون أن العراقيين أنفسهم أو أمثالهم يطلقون عليهم النار الآن. وفي غياب التوجيه من القيادة المركزية، بدأ القادة في المحافظات، مثل ديفيد باتريوس القائد الأعلى للفرقة 101 المحمولة جواً في الموصل، بتشكيل المجالس، وإيجاد شركاء عمل لإعادة الإعمار، وتدريب قوات الأمن، وحتى وضع السياسة الاقتصادية والحدود المحلية.

كانوا في عجلة من أمرهم، وغالباً لم يزعجوا أنفسهم بتنسيق عملهم مع المنظمات الدولية المختلفة ومسؤولي الاحتلال الذين يعملون على حل المشكلات ذاتها. في تلك الأثناء كانت سلطة الائتلاف المؤقتة لا تزال تضع مخططاً لمستقبل العراق. وقد أراني كولونيل في كركوك جدولاً بالمشروعات -مراكز شرطة، مراكز إطفاء، مدارس، حدائق- كان لواؤه مستعداً للبدء بها. فسألته عن المبلغ المخصص من بغداد، فأشار بيده إلى أنه صفر، «كان بإمكاني فعل الكثير في هذه المدينة لو كان معي حقيبة من النقود!» كان خائفاً من أن مركز شرطة كركوك الجديد الذي أقامته الكتيبة التي يقودها، سيلغى حين يصل برنارد كيريك -مدير شرطة نيويورك السابق الذي أرسله رئيسه بوش إلى العراق؛ لإعادة بناء قوات الأمن- معلناً عن خطته الوطنية. لكن بدلاً من ذلك، أمضى كيريك وقته في بغداد يذهب في عمليات دهم مع المرتزقة من جنوب إفريقية، بينما كان بيته في نيوجرسي يخضع للتجديد. عاد إلى أمريكة بعد ثلاثة أشهر فقط، ولم يترك شيئاً وراءه تقريباً، بينما أمضى الكولونيل الملازم نحو سنة في كركوك. كانت الأحرف الأولى لسلطة الائتلاف المؤقتة (CPA) تعني لبعض الجنود (Can't Provide Anything) (لا تستطيع تقديم شيء).

أما المدنيون في القصر فقد كانوا ينظرون إلى الموضوع بشكل مختلف. وفي نهاية جولته التي استمرت طوال اليوم في جنوب بغداد، حثّني بول بريمر على البحث فقط في نوع مشروعات إعادة الإعمار التي كنت أرى أنها تستهلك طاقة جون بريور. قال بريمر: «ذلك المال الذي ننفقه عبر الألوية والفرق هو أسرع مال نستطيع إنفاقه»، سلّمت القيادة المركزية المال من الأصول المحجوزة للنظام السابق بمعدّل نصف مليون دولار على مستوى الفرق ومئتي ألف على مستوى اللواء. وبعد أن أُنفقت المبالغ كاملة دُقّق واستُكمِل النقص. كان المبلغ مع القادة قد وصل إلى ثلاثة وعشرين مليون دولار في منتصف شهر آب، في أكثر من ألفي مشروع لإعادة الإعمار. قال بريمر: «لا نستطيع تتبّع عددها حتى، إنها أشياء صغيرة: كالمجاري، وفتح الحدائق والمتنزهات، وإصلاح المدارس، وتنظيف أنابيب الصرف الصحي». كانت هذه هي أكثر الإنجازات ظهوراً في الأشهر الأولى، وقد بدا في وقت من الأوقات أن سلطة الائتلاف المؤقتة لم تستطع الإشارة إلى شيء آخر، حين كان العراقيون يريدون معرفة ماذا يجلب لهم الاحتلال.

لكن ثلاثة وعشرين مليون دولار في أربعة أشهر كان مبلغاً صغيراً جدًّا من المال، أقل من دولار واحد لكل عراقي، وكانت فرصته قليلة مقابل عاصفة التوقّعات. اتّهم الضباط في العراق والمسؤولون في واشنطن، بمن فيهم وولفوفيتز ورايس، بريمر بأنه بطيء جدًّا في إعطاء المال لتمويل القادة. كانت البنية التحتية في العراق تتدهور طوال سنوات -قال لي ذلك مرة أحد خبراء التنمية الأمريكيين، ولو كان العراق سيارة مستعملة، فإن صداماً قد تخلص منها في الوقت المناسب- ومع انهيار النظام، ومغادرة كبار مديريه، بدا أن الآلة قد انهارت. ومع نهاية الصيف، فهم بريمر حجم المشكلة وضرورتها السياسية. ذهب إلى واشنطن، وأعلم البيت الأبيض بأن العراق سيكلّف أمريكة عشرات المليارات من الدولارات، وأن عائدات النفط العراقية والأصول المحجوزة لن تقترب من تغطية تلك التكاليف. وذهبت التنبؤات المطمئنة لتشيني ورامسفيلد وولفوفيتز إلى مزبلة التاريخ.

قام الرئيس بوش بإعلان الخبر إلى البلاد في 7 أيلول 2003، وأصدر البنتاغون بسرعة فاتورة تخصيص بقيمة 87 مليار دولار، تضمنت 18. 4 مليارات دولار لإعادة إعمار العراق. كان الجزء الأكبر من المبلغ مخصصاً لمشروعات البنية التحتية الضخمة -محطات الكهرباء، معالجة المياه والصرف الصحي، والاتصالات- التي لا تستطيع تنفيذها إلا شركات كبيرة متعددة الجنسيات. كانت هناك انتقادات كثيرة للعقود الحصرية التي تتم دون استدراج عروض، التي ذهبت إلى شركات أمريكية ذات صلات مع الحزب الجمهوري، لكن المشكلة لم تكن تتعلق بارتياح شركتي بيتشل وهاليبرتون مع إدارة بوش بقدر ما كانت تتعلق بالمشروعات التي تعاقدوا على القيام بها، وتنفيذها في واشنطن وبغداد. كانت المشروعات كبيرة جدًّا، وقوانين الشراء الأمريكية الرسمية لا تسمح بهذا الحجم، ولم تصل النقود إلى المجتمع العراقي إلا بالسرعة التي ينتشر فيها قطران سكب على الأرض في يوم بارد. وبحلول شهر آب 2004، بعد عشرة أشهر من التخصيص، لم يكن المبلغ الذي أُنفق يتجاوز 400 مليون دولار من أصل 18. 4 مليارات دولار -بنسبة لا تكاد تصل إلى 2%-. في هذا الوقت لم يصل إلى المقاولين الثانويين العراقيين من المال، إلا جزء صغير فاض عن الأمن (40% من أي عقد)، والفساد، والفوائد. ظلت سلطة الائتلاف المؤقتة تعد العراقيين بأن الصنبور على

وشك أن يفتح، وأن البلاد ستفيض بنقود الإغاثة التي يمكن أن تشغّل عشرات الآلاف من الناس. لكن هذا لم يحدث قط.

يكمن جزء من المشكلة في أسلوب العمل المعتاد في واشنطن، فقد قام رامسفيلد الذي كان مسؤولاً عن مرحلة ما بعد الحرب تقنياً، بتحديد المسار: ففي منتصف شهر أيلول، بعد أيام قليلة من خطاب بوش المتلفز، قال وزير الدفاع: «لا أصدّق أن علينا إعادة إعمار البلاد. سيكون على الشعب العراقي إعادة إعمار ذلك البلد في أثناء مدة من الزمن». حتى إنه عرض على الشعب العراقي خطة إعمار نوعية: «ستكون السياحة شيئاً مهماً في تلك البلاد بمجرّد أن تتم السيطرة على الوضع الأمني، وأعتقد أن هذا سيتم، بينما يتولى العراقيون مسؤولية حكومتهم أكثر فأكثر». لكن المسؤولين المهمين القادرين على التفاوض حول التوجيهات المعقدة للنفقات لم يذهبوا إلى بغداد قط. في إحدى رحلاته إلى واشنطن اقترب بريمر من ليس براونلي، وزير الحربية بالوكالة، واعترف قائلاً: «ليس لدي خبرة في التعاقد هنا على الإطلاق. وسأواجه متاعب كبيرة. هل بإمكانك مساعدتي؟» بموافقة وولفوفيتز بعث الجيش أربعين ضابط تعاقد من سلاح المهندسين إلى بغداد. وفي منتصف حقبة حياة سلطة الائتلاف المؤقتة بدأ مكتب إدارة المشروعات. قال لي مسؤول كبير في الإدارة: «لم أعمل بشكل جيد جدًّا. كانوا خائفين جدًّا. كانوا خائفين حتى الموت أن يَدَعُوا النقود تخرج؛ لأنهم سبق أن رأوا ما كان يحصل لبعض من الأموال العراقية» -وبدأت الاتهامات بالهدر والفساد تزعج سلطة الائتلاف المؤقتة- «وقد بدأت بعثات الكونغرس تزورهم». أصبح الإخفاق في إنفاق أموال إعادة إعمار العراق بحكمة أو بسرعة، أو في إنفاقها على الإطلاق، واحدة من أقل فضائح الاحتلال إعلاناً، لكن من أكثرها أهمية. في النهاية، وجد تقرير المفتش العام لسلطة الائتلاف المؤقتة أن تسعة مليارات دولار في التمويل العراقي قد ضاعت على عين بريمر، وهذا ليس سوى رقم تقريبي. قال المسؤول رفيع المستوى: «يوماً ما سيجلس شخص ما، ويحصي كم من المال اللعين تم هدره، يمكن أن تجلس هناك وتقول: (كوفي، أنت لم تهدر الكثير حقًّا، إذا فكّرت في الفساد والإسراف العاديين وغباء البرامج الدولية)؟ أنا أعتقد أننا أهدرنا في العراق أكثر مما فعل كوفي». وأضاف: «إذا كنت تمرّ بنقطة انعطاف سياسية وأمنية، فلن تساعدك جميع عقود العالم».

وجد جيري سيلفرمان الذي كان مسؤولاً سابقاً في الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية التي عملت في فييتنام أربع سنوات نفسه بعد عقدين من الزمن في العراق. كانت الفرضية وراء جهود التنمية في كلتا الحربين، كما قال هي: «إذا قدّمت أشياء جيدة للناس، فسينتج عن ذلك دعم سياسي، لكن ليس هناك دليل على ذلك، فقد أرسل الناس في فييتنام أولادهم إلى المدارس التي قمنا ببنائها، وكانوا يطلقون النار علينا في أثناء النهار على أي حال». لكن في العراق، بخلاف فييتنام، كانت الحرب السياسية لاتزال غير محسومة ربحاً أو خسارة في البداية، لو كان الأمريكيون قد قاموا بإرساء الأمن من البداية، قال سيلفرمان: «فمن الممكن -وليس الحتمي، لكن ممكن- أن تنجح إعادة الإعمار. لكن ذلك أصبح مستحيلاً من وقتها». وتابع أنه بالمقارنة مع الجنود والمدنيين الأمريكيين في فييتنام، كان الجنود والمدنيون الأمريكيون في العراق غير مستعدّين لتحمّل نوع الإصابات الضرورية لتأمين المدن والطرقات السريعة، ولذلك تضاءلت فرصة نجاح إعادة الإعمار. «إن قواتنا في وضع حماية القوة. وهم لا يقومون بحماية أحد غير أنفسهم. إنهم ميلشيا خاصة أخرى». كانت فييتنام والعراق حالتي «أخطاء مختلفة تنبع من استكبار واحد».

منذ الأيام الأولى للغزو وطوال الاحتلال، كان هناك تناقض مستمر في واشنطن حول ما إذا كان: هل توجد في العراق قوات كافية أو لا؟. منذ بداية أيار 2003، كان باول يقول لبوش: إن القوات غير كافية، وفي كل مرة كان الرئيس يسمعه، ثم يتبع نصيحة وزير الدفاع بدلاً من نصيحته. وكلما وجّه السؤال لرامسفيلد، كان ببساطة يكرّر تأكيداته بعدم الحاجة إلى وحدات أمريكية إضافية. كما كان الجنرال جون أبي زيد الذي خلف فرانكس في القيادة المركزية، والجنرال ريكاردو سانشيز الذي خلف ماك كيرنان قائداً للقوات البرّية في العراق، يقولان مراراً وتكراراً: إن لديهما قوات كافية للقيام بجميع المهام الموكلة إليها. كانت هذه تبدو إجابة فيها تلميح: لأجل ماذا كانت المهام؟ تم تعليق الخلاف في واشنطن، وكانت الإجابة تعتمد على صياغة السؤال. وقد قال أحد مساعدي بريمر: إن مديره لم يبدُ في حال أسوأ مما كان يوم قال له رامسفيلد في مؤتمر صحفي مصوّر: إنه لا يستطيع أن يقدّم أي قوات إضافية. بعد مغادرة العراق انتقد بريمر مستوى القوات، لكن في أثناء وجوده في بغداد لم يكسر علناً الجبهة الموحّدة لمديره التي حافظت على القصة. بدأ بعض أبطال الحرب،

مثل السيناتور جون ماك كين، وروبرت كاغان، ووليام كريستول يتوترون حين ذهب الصيف وحلّ الخريف ولم يتحقق توقع الإدارة بدعم القوات من قبل دول أجنبية، لكن المحافظين الجدد الآخرين ظلّوا واثقين. أمضت دانييل بليتكا من معهد المؤسسات الأمريكي أياماً قليلة في العراق في أيلول، ونشرت مقالاً عن العمليات في صحيفة The New York Times يعبّر عن رضاها عن مستوى القوات. وقد سألني ريتشارد بيرل سؤالاً استنكارياً: «ما الذي سيحققه وضع دوريات على الطريق السريع؟ يبدو لي أن هدف وجودنا هنا ليس التأكد من فتح جميع الطرق السريعة طوال الوقت، ليست هذه هي الطريقة التي نربح بها، في رأيي: أعتقد أننا سنربح، حين يكون لدينا استخبارات تحدّد لنا الأشخاص الذين نحاربهم».

يمكنك حسم هذا الخلاف من أول اتصال لك بالواقع العراقي، ما لم يكن لك مصلحة فيه. لم تكن هناك قوات كافية لحراسة الطريق بين مطار بغداد الدولي ومركز المدينة، بحيث لا يضطر الزوّار أن يحملوا أرواحهم على أكفّهم عند الوصول. لم تكن هناك قوات كافية في شوارع المدينة، حتى لردع من يريد سرقة سيارة أو إطلاق النار على قافلة أو اغتيال أحد المسؤولين. ولم تكن هناك قوات كافية لحراسة جزء من ملايين الأطنان من الذخيرة المتروكة في النفايات في جميع أنحاء العراق ومنع سرقتها المستمرّة من قبل المقاومين. ولم تكن هناك قوات كافية لتوفير وجود رمزي على الحدود العراقية مع سورية والأردن والسعودية وإيران مما يمكن أن يثني بعض العناصر الجهادية والاستخباراتية من اختراق تلك الحدود. ولم تكن هناك قوات كافية لمنع الميليشيات من السيطرة على محافظات كاملة. لم تكن هناك قوات كافية على الطريق السريع الرئيس لمنع قطّاع الطرق والمتمرّدين من إرهاب سائقي الشاحنات الذين يحملون البضائع الرئيسة، كمواد البناء أو حتى الطعام للمنطقة الخضراء. ولم تكن هناك قوات كافية للسماح لموظفي سلطة الائتلاف المؤقتة بأداء أعمالهم.

ربما كان الارتباط بين حراسة الطرق السريعة وبين ربح الحرب مجرّداً جدًّا لمؤيدي سياسة الإدارة الذين لم يذهبوا إلى العراق أبداً، ولكن فيما يخص القليل ممن ذهب إلى العراق. كان المفروض ألا يكون الأمر بهذه القسوة. فلماذا يشارك العراقيون في الجهود الأمريكية في حين لا تتمكن قوات الاحتلال من المحافظة على الحد الأدنى من النظام العام في البلاد؟

لم يكن عدد الجنود الأمريكيين في العراق الذي كان يقارب 135. 000، بزيادة أو نقصان عشرة إلى عشرين ألفاً أحياناً حسب رد الفعل تجاه الأحداث، يعكس شيئاً أكثر من فكرة رامسفيلد الثابتة عن التحويل العسكري، وإذا كان عليه إيجاد مزيد من القوات وإرسالها، فإن الاتجاه الذي كان يريد إرسال قوات القرن الحادي والعشرين فيه سيكون موضع تساؤل خطيراً. من الصعب أن نتخيل أن رامسفيلد كان لديه أدنى شك في ذلك: كانت لديه رؤية، ولم تكن العواقب الفوضوية لحرب العراق لتثنيه عنها. كان لدى الجنرال ريتشارد مايرز، رئيس هيئة الأركان المشتركة، السلطة القانونية بموجب مرسوم كولدووتر نيكولز Coldwater Nichols Act ليطلب اجتماعاً مع الرئيس إذا رفض وزير الدفاع نصيحته. قال مسؤول رفيع المستوى: «يعلم مايرز -عيله أن يعلم الآن - أن لديه جندي بحرية بمنصب نائب لرئيس الهيئة. عليهم أن يذهبوا ويقولوا: سيدي الرئيس، ليس لدينا قوات كافية، ويتحمّل العواقب». وكانت العواقب في رأيه أن يقف الرئيس ونائبه إلى جانب وزير الدفاع ويغادر رئيس الهيئة. لكنه على الأقل يغادر بفكرة: «إنني مارست حقي بموجب مرسوم كولدووتر نيكولز، وأنا أشعر بتحسّن». لكن مايرز احتفظ بدلاً من ذلك بمشورته وعمله. كان هناك دوماً أشخاص من أمثال الجنرال شينسكي ليحذّره (هو وغيره من الضباط رفيعي المستوى) من الصدق المفرط. قام قليل منهم بإيجاد طرق لإيصال الفكرة له على انفراد. وقد تكلّم الضباط في العراق فيما بينهم (دون نشر) على الحاجة إلى وحدتين إضافيتين. وبينما كان السيناتور جون بايدن يهبط بطائرة مروحية في نهاية إحدى زياراته أسرع جنرال في البحرية إليه قائلاً: «سيناتور، إذا قال: لك أحد إن لدينا قوات كافية هناك حين تعود، فقل لهم: اذهبوا إلى الجحيم».

قام كبار المدنيين في الإدارة وكبار الضباط في البنتاغون، وكبار المسؤولين في العراق بالتمسّك بمناصبهم، وخذلوا الرجال والنساء الذين أرسلوهم لتنفيذ سياستهم. لقد أخفقوا في أهم التزاماتهم، وهو أن يعطوا هؤلاء الرجال والنساء ما يريدون. كان وصول المركبات المسلّحة والمصفَّحات المضادة للرصاص والستر الواقية من الرصاص، ببطء وسوء إدارة، أكثر الأدلة وضوحاً على أن حرب العراق، ككل حرب -عادلة أو غير عادلة، رابحة أو خاسرة- قد أصبحت مؤامرة للكبار الأقوياء على الشباب المطيعين.

ومع استمرار الحرب، لاحظت كم من المرات كان بول وولفوفيتز يسافر إلى العراق. أحياناً كان يرافقه في هذه النزهات الثلاث أو الأربع في اليوم ثلة من الصحافيين المتعاطفين الذين يقومون بعد ذلك بسرد قصص مفادها أن الأمور كانت تسير بشكل جيد جدًّا. لكن كان من المستحيل ألا نرى أن وولفوفيتز نفسه كان متأثراً بشكل عميق بالتزام الجنود في قاعات الطعام والمشافي الميدانية، وكيف كانوا (كما قال) يعزّزون معنوياته بدلاً من أن يقوموا هم بتقوية معنوياتهم، وكيف كان يستمع إليهم بشكل جيد (كانت فطنة نائب الوزير قد أدّت إلى نزع سلاح قائد كتيبة التقيته في كركوك، بعد أن قضى معه دقائق قليلة) وكيف كان يتكلم بحزن، ووجه شاحب، بعد الهجوم الصاروخي على فندق الرشيد الذي أدى إلى مقتل مقدّم في الجيش في الطابق الذي تحته مباشرة. ثم تنتهي زيارة وولفوفيتز، ويعود إلى واشنطن، حيث لم يكن قادراً أو راغباً على الإطلاق في القيام بأهم الأشياء التي باستطاعته تقديمها للجنود، بأن يعطيهم ما يحتاجون إليه. ومع الوقت، أصبح من الصعب التفكير بإخلاص جنود مثل جون بريور، وبالإيمان والذكاء الذي كانوا يقومون به في مهامهم، وعدم الشعور بالمرارة.

في صيف 2003، كانت معنويات كتيبة بريور تمر بمرحلة عصيبة. ففي الأشهر الستة الأولى لهم في أرض المعركة لم يحصل بعض الجنود إلا على ما مجموعه ثلاثة أيام من الإجازات. وصار آخرون يعانون هزالاً شديداً، حتى بدأت تقارير القيادة تسمّيهم «كتيبة الأشباح» -حيث كانوا يسجّلون في دوريات مجدولة لا يقومون بها فعلاً- قلة من صغار الجنود في الكتيبة كانوا ينوون البقاء في الجيش بعد مهمتهم الحالية. انتشر استخدام الكحول الذي كان غير مسموح به للجنود المتمركزين في العراق، وجرت ثلاث حوادث انتحار في كتائب أخرى في القاعدة. كانت العلاقات بين الشباب الأمريكيين في نهاية دورية أربعة أيام وبين العراقيين المضيفين تتدهور، حسب ما قال أحد الضباط، إلى «رجال يقومون بركل الكلاب، ويصرخون على رجال كبار في السن يكبرونهم عشرين عاماً، ويدفعون بالأطفال على السيارات المركونة؛ لمنعهم من اللحاق بهم وإزعاجهم». وفي شهر أيلول، قام جنود في أحد الفصائل من سريّة تشارلي بضرب عراقيين أمسكوهم، وهم يجولون حول سور المخفر الأمامي لهم في الزعفرانية عُوقب الجنود بتخفيض رتبهم،

وفي إحدى الحالات بالحبس. كان الجميع يعانون التوتر بسبب الحرّ، والأيام الطويلة، وقلة النوم، والحنين إلى الوطن، والتهديد المستمر بالهجمات (التي كانوا يرونها قدرهم)، والحقيقة البسيطة أنه لا يوجد مكان قريب جدًّا لهم للقيام بجميع المهام الموكلة إليهم.

وقد كتب لي أحد الجنود في كتيبة بريور وصفاً مطوّلاً للمشكلات:

إن الروح المعنوية سيئة بسبب القيادة العليا، ولا أعني بذلك بالضرورة قائد الكتيبة أو قادة السرية، وإنما قادة الألوية والفرق، وربما الجنرالات في البنتاغون والقيادة المركزية أيضاً، الذين يبدو أنهم منعزلون عما يحدث على مستوى أرض المعركة، أو أنهم غير راغبين في سماع حقيقة الأمور، أو (وهذا هو الاحتمال الأكبر) أنهم يعلمون ما يحدث، لكنهم يريدون أن يحصلوا على الترقية بشدة، لدرجة أنهم يريدون الضغط على الجنود لعدم رغبتهم في مواجهة مشكلة المعنويات؛ لذا يتابعون دفعهم لزيادة العمل بموارد أقل؛ لأن رامسفيلد يريد منهم زيادة العمل بموارد أقل؛ لإخراجنا من هنا بسرعة. هؤلاء الناس يشبهون مدمني الكحول بشدة، فهم لا يرغبون في الاعتراف، حتى بوجود مشكلة.

لم يكن الجندي متخاذلاً. لكنه ببساطة كان يصف ما يعرفه أي شخص يقضي وقتاً مع القوات الأمريكية في العراق، وقد ختم رسالته كما يأتي:

لست متشائماً بشأن العراق؛ لأن الأمور تتحسّن وستستمر في التحسّن، ولو ببطء. هناك أمور عظيمة نقوم بها هنا، وقد أنجزنا الكثير، لكن لايزال هناك الكثير لنحققّه، وما نحتاجه الآن هو المال، والناس، والأهم الوقت للقيام به. سننجح، هذا أكيد، ولن تكون هذه الحرب فييتنام جديدة؛ أنا مؤمن بذلك بالفعل.

كان جون بريور مؤمناً أيضاً، فالجيش سيصبح مهنته، وفي العراق الذي كان يسميها «المهمّة الأولى للعالم الحقيقي»، كان يكتسب خبرة لا تقدّر بثمن في القيام بأمور لا يعلّمونها في التدريب الأساسي، لكن أهميتها ستكون أكثر فأكثر لمهام الجيش الأمريكي والجيل الجديد الذي سيقوده.

مـرة سـألت بريـور إذا كان عمله الليلي -المداهمـات والاعتقالات- يهـدد بإلغاء الخير الذي يحققه في عمله في أثناء النهار، وهل تبدو المهمة مستحيلة؟ لم يكن يعتقد ذلك: فحين تجري مياه الصرف الصحي وتنظّم أمور المدارس ستصبح نظرة العراقيين إلى الأمريكيين كنظرة الأمريكيين لأنفسـهم، بوصفهم أشخاصاً يحاولون المساعدة. لكن بريور ليس موظفاً إنسـانياً رقيقاً. كان يحسـب نفسه عاملاً واقعياً في السياسة الخارجية. كان يعتقد أن إنشاء نظام الصرف الصحي في الزعفرانية جزء أساسي من الحرب على الإرهاب. فالإرهابيون يعتمدون على ملايين المتعاطفين الذين يعتقدون أن أمريكة شريرة، وأن الأمريكيين لا يريدون إلا نفط الشـرق الأوسـط. قال بريور: «لكننا نأتي إلى هنا ونريهم أننا صـادقون، وجديرون بالثقة، ومهتمّون ومتعاطفون، ونحن نهتم بهم، ونهتم بإصلاح حياتهم. ليس لأن علينا ذلك، بل لأننا قادرون على ذلك؛ لأننا نسـتطيع أن نكون محسـنين، لأننا فعلاً محسـنون. وعندها تحرمهـم ممـن يؤويهم». وذات مرة، بينما كان بريور يراقب أحد المسـاجد المحلية في أثناء صلاة الجمعة، سمع الإمام يقول: إن بعض الأمريكيين غير المسلمين يتبعون عقائد الإسلام أكـثر من بعض المسـلمين في العـالم العربي. كان بريور يعتقد أن نظام الصـرف الصـحي في الزعفرانية يسـتحق الموت من أجله؛ لأن إصـلاحه سـيقلل من فرص ضـرب الإرهابيين لبوسطن، حيث تعيش خطيبته.

لم أفكـر في جون بريـور مرة إلا تذكرت حادثة محددة، كانت في أثناء الحرب والاحتلال نقطـة صـغيرة، لكنها بقيت لدي أهم من غيرها من الأحـداث: كنت أركب عربة هامفي مع بريور حين علقنا في زحمة سيارات عند أحد المخارج على طريق بغداد السريع. وفي الفوضى المعتادة للطرقات، كان السـائقون يتقدمون ويتأخرون من الصـفوف البعيدة؛ ليمرّوا بخط المخرج، الذي كان يعيق السـير، ويشـكل ازدحاماً على الطريق السـريع. وبعد دقائق قليلة، خـرج بريور من مقعد الراكب الأمامي، ومشـى بسـرعة بين السـيارات المتوقفة ليقف أمام الصف، حيث كان الغشاشون يحاولون التسلل لدخول الخط. رفع يده وأشار إليهم أن يبتعدوا عن الخط، وارتاح الناس المجتمعون، لكن أحد الرجال تابع التقدّم في اتجاه بريور الذي قام أخيراً بضرب السيارة بيده، وحدّق بالرجل عبر الزجاج الأمامي للسيارة، ولوّح بيده مشيراً إلى الطريق السريع. تمتم بريور: «هيا أيها الرجل، ماذا تحاول أن تفعل؟». فحدّق فيه الرجل

بغضب، وظننت أنه سيتابع التقدّم حتى يدهس بريور. لكنه بدلاً من ذلك توقف، ثم غادر الصف. كان ذلك عرضاً مذهلاً للأعصاب، فقد كان بريور مكشوفاً تماماً، ولم يكن أي من رجاله بجانبه، جندي أجنبي يأخذ على عاتقه فرض الأمن. لا شك في أن السائقين الذين منعهم من الخروج قد استاؤوا من ذلك، لكن السائقين الآخرين لوّحوا له بأيديهم شاكرين. أتساءل: كم من الجنود يفعلون الشيء ذاته؟ فمعظم القوافل الأمريكية كانت تنطلق في بغداد، مجتاحة الأسفلت والأرصفة، دون أن تهتم بقواعد الطرق أو بالسائقين العراقيين. في تلك اللحظة شعرت أن المشروع الأمريكي في العراق يعتمد كله على مثل تلك الأفعال وردود الأفعال التي تتصف جميعها بأنها مميزة وغير متوقعة.

في أواخر شهر تشرين الأول 2003، تحدّثت مع بريور هاتفياً من بغداد. كانت برك المجاري قد تمّ تنظيفها، وكان الأمن في منطقته قد تحسّن مع تحسّن الاستخبارات. كان أعضاء المجلس يتقاضون ستين دولاراً شهرياً، ويديرون اجتماعاتهم بأنفسهم. وقد حصل عبد الجبار الدويش على عمل بصفة حارس أمني. لكن لأسباب مختلفة، تمّ إيقاف التمويل للقادة لإعادة الإعمار، كان لذلك علاقة بقضية رفعها محاربون سابقون عاجزون من حرب الخليج، أو الوزراء الجدد العنيدون. كانت أموال المشروعات الجديدة تنفد بسرعة، وكان كبار المقرضين يهدّدون بعض مقاولي شركة تشارلي، وكان كثير من العمل يتوقف. وبسماع ذلك، تذكرت شيئاً كان بريور قد أخبرني به، بينما كنا في الطريق إلى قرية صدام حسين: «أكثر الأمور إحباطاً أننا لا نستطيع أن نفعل المزيد لهم. يداي مقيدتان، وكذلك أيدي الجميع». وأضاف: «من الصعب أن نعرف المستوى الذي يبدأ عنده تقييد الأيدي».